محاكاة الطرق الفطرية في اكتساب اللّغة وتعلّمها من منظورلساني.

Simulating the innate ways of acquiring and learning a language from a linguistic perspective

د.محمد رباحي[1]*،

[1]جامعة سعيدة ، (الجزائر)، medrebahi@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/08/13 **تاريخ المراجعة**: 2021/12/06 **تاريخ النشر**: 2022/03/30

ملخص:

قدّمت المباحث اللسانية مفاهيم وتصورات تؤصل لماهية اللُّغة وتُيسّر سبل تعليمها وتعلّمها، وإن اتجهت بعض النظريات إلى التّعقيد والغموض لارتكازها على منطلقات سطحية دون البحث في الأبعاد العميقة للظاهرة اللّغوية؛ فإنّ هناك نظريات أخرى انطلقت من مفاهيم أساسية حول ماهية اللّغة؛ وآليات اشتغالها في العقل البشري وطرق اكتسابها بصورة فطرية لا ترتكز على استنباط القواعد اللُّغويّة وتلقينها.

وقد أفادت هذه التوجّهات المعاصرة في تبسيط طرق تعلّم اللُّغة وتعليمها بالانطلاق من محاكاة أنماط التعلّم الفطرية التي يكتسب بها الفرد السليم لغته؛ وبها يستطيع التّواصل والتعبير دون أن يتعرّض لأي عملية تعليمية، هذه الآلية التي من خلالها يستطيع الفرد أن يتعلّم بصورة عفوية هي الغاية التي نسعى إلى فهمها ثمّ محاولة محاكاتها وصياغة مناهج وفقها.

كلمات مفتاحية: الملكة اللّغوية، المُعجَم الذهني، تعليمية اللّغات، اكتساب اللُّغة، القدرة التعبيرية.

Abstract:

Some linguistic theories have presented concepts of the nature of language that facilitate the ways to teach and learn it, although some of them have tended to complexity and ambiguity because it is based on superficial premises of the concept of language without looking into the deep dimensions of the linguistic phenomenon. The human being and ways of acquiring them innately without over-reliance on the deduction and indoctrination of linguistic rules.

These contemporary trends have benefited in simplifying the methods of language learning and teaching by simulating the innate learning patterns by which a healthy individual acquires his language; Through it, he can communicate and express without being exposed to any educational process. This mechanism through which the individual can learn spontaneously is the goal that we seek to understand and then try to emulate and formulate curricula according to it.

***Key words**: language queen, mental lexicon, teaching languages, language acquisition, expressive ability.*

* المؤلف المراسل .

تقديم:

مازال اهتمام الباحثين اللغوين متجها إلى تحصيل آليات اكتساب اللُّغة وطرق اشتغالها في العقل البشري، ومازالت الظاهرة اللّغوية تأخذ جل الاهتمام لما لها من أثر في التّواصل والتّعبير وكونها وسيلةً للتفكير وأداةً لعلم ونقل المعرفة، ومع تطور الدرس اللّساني ظهرت كثير من النّظريات والمقاربات التي سعت إلى تقديم تصورات يمكن من خلالها تعليم اللُّغة وتعلّمها بالانطلاق من الفهم السّليم لسر تكوّن الملكة اللّغوية وطرق اكتساب المُعجَم الذهني؛ مع وجوب الابتعاد عن تلك التّعقيدات التي ظلت ترافق الدرس اللّغوي وقد جعلته عصيّا على عقول المتعلمين.

ويرتبط بحث كيفية تعلّم اللّغة وتعليمها بفهم آليات اكتساب المُعجَم الذهني وطرق اشتغاله، حيث يكتسب الإنسان السّليم معجمه الذهني بصورة عفوية؛ ومن خلاله يكون قادرا على التواصل والتعبير واستخدام الألفاظ والتراكيب بما يوافق كُلّ عملية تواصلية بصورة سليمة، فالذهن البشري يقوم بتخزين رصيد هائل من المفردات والتّراكيب والأساليب؛ ويوظف خوارزميات معقدة تتيح له استدعاء ما يحتاجه من ألفاظ وأساليب تناسب كُلّ عملية تواصلية في لغة واحدة أو في عدد من اللّغات.

إذن نحن نسعى إلى فهم وتحديد ماهية اللُّغة ومعرفة أنماط التّخزين الذهنية انطلاقا من تصورات بعض اللسانيين؛ وذلك من خلال محاكاة الآلية الفطرية في اكتساب اللُّغة والتي بواسطتها يستطيع العقل البشري اكتساب مُعجَما ذهنيا يغطي مختلف الأساليب والتراكيب؛ والقواعد اللّغوية الصريحة منها والضمنية مع القدرة على توظيف مبادئ الاستنتاج والتحكّم في العلاقات المنطقية والرياضية وغير ذلك. هذه الآليات الذهنية التي يوظفها العقل البشري هي الغاية التي نسعى إلى محاكاة طُرق اكتسابها؛ وبها نكون قادرين على تعليم اللُّغة وتعلّمها بعيدا عن التّعقيدات التي ترتكز في معظمها على استنباط القواعد اللّغوية ومحاولة تقديمها للمتعلمين؛ ويُرجى من ذلك أن يقوم ذهن المتعلم بعمليات تحكيمية كي يصل إلى استخلاص ما هو سليم وما هو فاسد من اللّغة؛ وقد أثبت هذا التوجه الأخير محدوديته في تقديم اللّغة بصورة ميسرة للمتعلّمين.

أولا: تصورات بعض اللّسانيين لكيفية اكتساب اللغة

يقول يلمسليف: "يتعيّن على اللُّغة، بوصفها نسقًا من الرموز أن تشكّل منفذا إلى النّسق المفهومي وإلى النفس الإنسانية، وبوصفها مؤسسة اجتماعية تتخطى الفردية، يجب أن تسهم في تعيين ميزة الأمة، بما يطرأ عليها من التّغير والتّطور، وجب أن تفتح الطريق لمعرفة الأسلوب الشخصي، ولمعرفة أقدم صروف الأجيال الغابرة، وبذلك احتلت اللُّغة موقع المفتاح الذي يشق آفاقا في اتّجاهات كثيرة، واعتبار اللُّغة كذلك يجعلها تتمنّع أن تكون هدفًا للعلم وإن ظلت موضوعا له، وتتحول إلى وسيلة معرفة تكمن خارج ذاتها"[1]، واللُّغة فضلا عن كونها أداة اتّصال بين الإنسان وعالمه الخارجي؛ فإنّها تتنزّل منزلة الرّابط الجدلي الفعّال بين العقل من حيث هو أداة التّفكير، ومكتسبات العقل من حيث هي موضوع التّفكير[2].

لقد سعت بعض النّظريات اللُّغويّة إلى تصوير ماهية اللُّغة لغرض فهمها، والبحث فيها، ومن ثمّ تحديد آليات اكتسابها، وانقسمت تلك النّظريات اللسانية من حيث موقفها من علاقة بُنية اللُّغة بوظيفتها، إلى قسمين: نظريات (صورية) وأشهرها النّظريّة التوليدية التحويلية التي لا تؤمن بأنّ للّغة وظيفة معيّنة، أو لا تؤمن على

الأقل بجدوى أخذ الوظيفة بعين الاعتبار في التّنظير اللساني، ونظريات (وظيفية) تنطلق من مبدأين منهجيين أساسيين: تأدية اللُّغة لوظيفة التّواصل وارتباط بُنية اللُّغة بوظيفتها هذه ارتباط تبعيّة. وتندرج في الفئة الثانية من النظريات: نظرية النّحو الوظيفي[3].

1- يرى البنيويون أنّ اللُّغة عادة من العادات، تُكتسب بالمحاكاة والقياس، وعامل القياس هو الذي يفسّر به البنيويّون كيف أنّ الإنسان استنادا إلى صيغ لغوية معدودة سمعها فعلا، يستطيع أن يؤلّف صيغا لم يسمعها قطّ في حياته، ولا تَعْرِف في عددها حدّا تنتهي إليه، واللُّغة في نظر تشومسكي ملكة فطرية تُكتسب بالحدس، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلّم باللُّغة إلّا إذا سمع صيغها الأوّلية في نشأته فإنّ سماع تلك الصيغ ليس هو الذي يخلق القدرة اللُّغويّة في الإنسان وإنّما هو يقدح شرارتها فحسب، وهذا يفسّر الطابع الخلّاق في الظّاهرة اللّغوية، وكذلك طابعها اللامحدود، فهي تتمثّل في أنّها ظاهرة يختصّ بها الفرد الآدمي، وهي مظهر من مظاهر وصف السلوك البشري، فالناس يتحدّثون ويفهمون، وليس أحد منهم قد وُلد قادرا على شيء من ذلك وإنّما حُملوا على اكتساب تلك المهارات ولم يتساووا في تحصيلها، فاللُّغة جزء من العالم النّفساني لدى البشر وهي ضرب من السّلوك تقوم وظيفته على مبدإ التّواصل[4]. وميّز تشومسكي بين التعلّم والاكتساب، واعتبر الاكتساب بمثابة الأساس، لأنّه يرتبط باللُّغة الأم، ويتحقّق بفضل التفاعل مع المحيط، في حين اعتبر التعلّم بمثابة عملية ترتبط باللُّغة الثانية، لذلك افترض أنّ الطفل يولد مزوّدا بجهاز ذهني فطري، عبارة عن ملكة لغوية يمكّنه من اكتساب اللُّغة شرط أن يتفاعل تفاعلا محدّدا مع محيطه، وهذا يعني أنّ كُلّ طفل، حسب تشومسكي، يمكن أن يكتسب لغة البيئة التي يعيش فيها دون أي نشاط أو مجهود تعليمي واعي ومنظّم، وذلك بفضل هذه القدرة اللُّغويّة الفطرية المزود بها منذ ولادته[5]. ويرى (سيمون ديك) (Dik,S.c) أنّ وصف عمليتي اكتساب اللُّغة وتعلّمها وتفسيرهما يرتبط بمفهوم أوسع وأشمل من مفهوم القدرة اللّغوي الذي اعتمدته التوليدية، فقد تبنى مفهوم القدرة التّواصلية الذي لا يقتصر على تمكّن الطفل من اكتساب المعرفة اللُّغويّة فحسب، بل أيضا، من اكتساب استعمالها في الآن ذاته، ومعنى ذلك أن الطفل لا يقتصر على اكتساب بُنية اللُّغة الأم التي يحتكّ بها في محيطه، أي القواعد الصرفية التركيبية والصوتية، فقط، بل يكتسب وظيفتها وسياقات استعمالها الاجتماعية والثقافية وغيرهما[6]. وجاء وصف سيمون ديك (Dik.S.c) في كتابه (Functional Grammar) للقدرة التّواصلية باعتبارها قدرة شاملة وواحدة لا تتجزأ ولا تنحصر في معرفة القواعد الصرفية والتركيبية والدلالية والصوتية، بل تتعدّاها إلى معرفة القواعد التّداولية، القواعد التي تُمكّن مُستعمل اللُّغة الطبيعية من إنتاج وفهم عبارات لغوية سليمة في مواقف تواصلية معيّنة قصد تحقيق أغراض معينة، وافترض أنّ هذه القدرة التواصلية عبارة عن ملكات خمس، منها ما هو لغوي (الملكة اللُّغويّة) ومنها ما هو غير لغوي (الملكة المنطقية، والملكة المعرفية، والملكة الإدراكية، والملكة الاجتماعية) نوضّحها على النحو التالي:[7]

- ✓ أ- **الملكة اللغوية**: "ويُقصد بها الملكة التي تُمكّن مستعملي اللُّغة الطبيعية من إنتاج وتأويل عبارات لغوية معقّدة ومتباينة في عدد كبير من المواقف التّواصلية المختلفة"[8]. وهي من المفاهيم الأساس في نظرية تشومسكي اللسانية باعتبارها عضوا ذهنيا، وليست كما يتصورها الكسبيون، صفة حادثة، بالاكتساب يحلّ في عضو من الدّماغ معدٍ لأن يتشكّل بها فيمتلك الفرد قدرة على فعل الكلام[9].

- ✓ ب- **الملكة المعرفية**: تعدّ بمثابة ملكة تُتيح لمستعملي اللُّغة الطبيعية تكوين مخزون معرفي منظّم والاحتفاظ به وتوظيفه حين الحاجة، وهي ملكة تمكّنه كذلك من اشتقاق معارف من عبارات لغوية واختزانها ثمّ استعمالها في تأويل عبارات لغوية أخرى[10].
- ✓ ج- **الملكة المنطقية**: يقصد بها "الملكة التي يتسنّى لمستعمل اللُّغة الطبيعية بواسطتها أن يشتقّ معارف إضافية من معارف أخرى مُستخدِمًا قواعد استدلالية تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي"[11]. و"تُعدّ الطاقة المنطقية الطاقة المسؤولة عن استخلاص معلومات جديدة من معلومات قديمة عن طريق إجراء قواعد استدلالية تحكمها مبادئي المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي"[12].
- ✓ د- **الملكة الإدراكية**: هي عبارة عن "ملكة تمكّن مستعمل اللُّغة الطبيعية من توظيف المعارف التي يستخلصها من إدراكه لمحيطه في إنتاج وفهم العبارات اللغوية"[13]."ويستطيع مستعمل اللُّغة الطبيعية بفضلها أن يُدرك العالم الخارجي بوسائل الإدراك البشرية من سمعٍ وبصرٍ ولمسٍ وشمٍ وذوق، وأن يكتسب بفعل إدراكه ذاك معارف يستعملها في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها، وبفضل هذه الطاقة أيضا تصبح حركات الجسد مصدرا غنيّا بالمعلومات، وتسند إليها دلالتها المناسبة تبعا لسياق ووردها"[14].
- ✓ هـ- **الملكة الاجتماعية**: تمكّن الطاقة الاجتماعية مستعمل اللُّغة الطبيعية من إنتاج عبارات لغوية تبلغه أهدافه التّواصلية أيًّا كان مخاطبه وأيًّا كان الوضع الذي يتمّ فيه التّواصل الاجتماعي بواسطة اللُّغة، إذ بواسطة هذه الطاقة يتجاوز المتكلّم معرفة مضمون ما يقوله إلى معرفة الكيفية اللائقة التي يجب عليه أن يُنتج مقوله بها طبقا لما يقتضيه وضع مخاطبه وزمان القول ومكانه[15].

2- يرى الاتجاه الوظيفي أنّ المبادئ الفطرية التي تؤطر عملية اكتساب اللُّغة والتي تشكّل كلّيات لغوية أو نحوًا كلّيا مبادئ تربط بُنية اللُّغة بوظيفتها بما مفاده: أنّ الطفل أثناء تعلّمه للغة يكتسب بالتّدرج بُنيات لغويّة مشفوعة بما تؤدّيه من وظائف، أي من أغراض تواصلية. مثال ذلك أنّ الطفل لا يكتسب البُنيات الموقعيّة العربيّة بوصفها مجرّد تقاليب لنفس البُنية بل باعتبارها تراكيب تؤدّي ثلاثة أغراض تواصلية مختلفة: إخبار بجديد. وتصحيح لمعطى غير وارد. واهتمام بذات دون غيرها على التوالي. بتعبير آخر ما يُكتسب أثناء تعلّم لغة ما ليس (قدرة لغوية) صرفًا بل (قدرة تواصلية) تمكّن الطّفل من معرفة (أوضاع اللُّغة) معجما وصرفًا وتركيبًا، وكذلك من معرفة استخدام هذه الأوضاع في إنتاج خطابات متعدّدة متباينة الأنماط[16].

ثانيا: المُعجَم الذهني

يقودنا البحث عن سر تكوّن الملكة اللّغوية إلى التركيز على فهم اللُّغة؛ وطُرق اشتغالها في العقل البشري؛ وآليات اكتسابها، دون التوقف عند حدود دراسة الظاهرة اللُّغويّة في بعدها السطحي، ومن ذلك بحث سر تكون الآلية اللُّغويّة، وصور تخزين المفردات في الدّماغ البشري، وشكل الخوارزميات التي يوظفها العقل البشري في معالجة اللّغة، وبحث القواعد التّصريحية والضمنية التي تضطلع بدور إنتاج الملفوظ اللُّغويّ.

ويعدّ المعجم الذهني الطريق الذي به نتعرّف على الأشياء ومعانيها من خلال حصيلة الخبرة البشرية المتراكمة في شتى المجالات والميادين. ومداخل هذا المعجم يمكن أن تكون صوتية أو تصويرية أو حسية أو لفظية بخلاف المعاجم الآلية التي يفترض في مداخلها أن تكون لفظية فقط، ويُعتبر المُعجَم الذهني نموذجًا للكفاية اللّغوية لدى المتكلّم (في دماغه البشري)، وهو عبارة عن منظومة من الوظائف المسجّلة في الكفاية المُعجميّة

على شكل متواليات لغوية يصطلح عليها في علم المُعجَم بالمداخل الُمعجميّة. ويعدّ البحث في المُعجَم الذهني الذي يكتسبه المتكلّم فطريًا أيًا كانت اللُّغة الطبيعية التي تُشكّل مادّته من أحدث مواضيع البحث الُمعجميّ[17].

وتقترن دراسة المُعجَم الذهني بمفاهيم أخرى ذات حمولة معرفية، ولها امتدادات في الأنشطة المعرفية الإنسانية الأخرى، ولا تقتصر على المعالجة اللُّغويّة مثل مفهوم التّخزين والذاكرة والتّمثيل والنّفاذ، وإن كان مفهوم المعالجة اللُّغويّة (Language Processing) يقع في صلب المقاربة المعرفية للسيرورات اللُّغويّة باعتبارها مقاربة تتمحور حول مسارات الإنجاز اللُّغويّ وتنأى عن الاهتمام بقضايا الكفاية اللُّغويّة. ويتضمّن المُعجَم الذهني المعلومات الصّوتية والصّرفية والتّركيبية والدّلالية التي يعرفها المتكلّم عن مفردات لغته، سواء في جزئها (المسموع/المنطوق) أم في جزئها (الإملائي/المكتوب)، ويتكفّل المُعجَم الذهني بتدبير آليات إسقاط الصوت في المعنى. فمبدئيا يتوسط المُعجَم الذهني محلّلين؛ المحلّل (السمعي/النطقي)، والمحلّل التركيبي والدّلالي للرّسالة، إلّا أنّنا نجد من المقاربات ما بُني على التّصور المتعدّد الأبعاد للمعجم الذهني باعتباره مكونا يشمل مجمل الخصائص اللسانية للكلمات، وبالتّالي لا مجال للفصل بين التّمثيلات الُمعجميّة ونظام اشتغال المحلّلات التّركيبية والدّلالية[18].

ولعل أهم ما يدعو إلى البحث في المُعجَم الذهني هو قدرة العقل البشري الهائلة على تذكّر الكلمات وتأويلها، بفضل أنماط التّخزين التي يعتمدها، "ولا يجب أن نتصور أنّ عملية التّجميع في الحافظة مع ما فيها من تبويب وتنظيم، تشبه عمل النّحاة وواضعي القواعد، أو أنّ فهم الإنسان العادي للصيغ وطرق استعمالها يشبه فهم اللّغويين لها، ولكنّه على كل حال تبويب وتنظيم يعين الذاكرة حين تدعو الحاجة إلى شيء ممّا هو محفوظ مخزون"[19]. فالتخزين (storage) إذن لا يتمّ كيفما اتّفق، أولًا لأنّ عدد الكلمات كبير جدًا، وثانيًا لأنّ البحث عن الكلمات واسترجاعها يتمّ بسرعة فائقة جدًا. إنّ الذاكرة البشرية مرنة وقابلة للتوسيع (flexible/extendable)، شريطة أن تكون المعلومات مُبَنْيَنَة، فالأشياء غير المنظمة يصعب تذكّرها، بيد أنّ الكميات الهائلة من العينات يمكن تذكرها واستعمالها إذا كانت منظمّة، والمتكلّمون يعرفون كثيرا من الكلمات ويسترجعونها بسرعة وأنّ الطاقة الذاكرية لمتكلم اللُّغة طاقة ضخمة، حيث يستطيع الطفل في ظرف وجيز جدا أن يكتسب آلاف الكلمات، ويبدو أنّ المعجم الذهني قائم على نظام يمكن من خلاله معاينة الكلمة في بضع لحظة (خمس الثانية أو أقل)، ويقع تحديد ما ينتمي إلى مجموعة اللاكلمات، فهناك إذن قدرة خاصّة للبحث عن الكلمات وإصدار قرار معجمي في نصف ثانية. إنّ المُعجَم الذهني المنظّم تنظيما محكما هو الذي يُترجم القدرة على التخزين الكثيف، وعلى الاسترجاع السّريع. ونمط تخزين المعلومات في المُعجَم الذهني ليس ألفبائيًا، فلو كان مرتّبا بطريقة ألفبائية لصعب استرجاع المعلومات، ولتطلّب منا البحث عن كلمة ما يتطلّبه البحث عنها في قاموس صناعي، وتفيدنا الأخطاء التي يرتكبها النّاس في النّظر إلى المُعجَم الذهني وبُنيَتِه الداخلية، ومن جملة هذه الأخطاء أخطاء الانتقاء، فلو كان التّرتيب في المُعجَم الذهني ألفبائيا لكان الخطأ يؤدي إلى استعمال الكلمة الموالية ألفبائيا، فالأخطاء تشمل عادة كلمات متقاربة في المعنى، وذلك باستعمال كلمة مقابل أخرى مقاربة لها في المعنى، والمعجم الذهني أكثر بَنْيَنَةً وأكثر تعقيدا، والعربي يخطئ في الحركات، أو يخطئ في استعمال الكلمات المتقاربة، أوفي النطق أوفي التركيب، إلخ[20].

أمّا البحث في كيفية تكوّن المعجم الذهني فهو جزء من البحث في آليات اكتساب اللُّغة، وتؤصّل له كثير من النّظريات اللّسانية المعاصرة التي سبق التّطرق لها، وتأتي أهمية المُعجَم الذهني انطلاقًا من أنّ القدرة المُعجميّة هي أساس العملية التواصلية بين مستعملي اللُّغة الطبيعية، والمنطلق لعمليات إنتاج الخطابات اللغوية وتأويلها وفق سياقات استعمالها، لأن التّواصل لا يتحقّق بين المتخاطبين إلا باشتراكهم في معرفة المفردات اللّغوية التي يتخاطبون بها ومعرفة مدلولاتها. وعلى هذا الأساس، فإنّ تنمية القدرة المُعجميّة، لدى مستعملي اللُّغة عن طريق التّعلم، ينبغي أن يستفيد من النتائج التي حقّقتها أحدث النظريات اللّسانية المهتمّة بالاكتساب اللّغوي، وما توصّلت إليه في أبحاثها حول القدرة المُعجميّة، وآليات التّخزين والاسترجاع، وطبيعة المادة اللُّغويّة المخزّنة، وقواعد الاشتقاق (والإنتاج)[21].

ثالثا: الاكتساب الفطري للُّغة

يستطيع الإنسان السّليم أن يكتسب معجمه الذهني بصورة عفوية من خلال التفاعل مع محيطه ودون أن يكون طرفًا في أي عملية تعليمية، وبذلك يستطيع التّواصل والتّكلّم واستدعاء ما يحتاجه من ألفاظ مخزّنة في معجمه الذهني والتي توافق مختلف الحالات التّواصلية، كما أنّه ليس بالضّرورة "أنّ كُلّ ما ينطق به المتكلّم يكون مما لقنه من غيره، أو تلقّاه من قبل عن متكلّمٍ آخر، ليس من الضروري الحكم على أنّ كلام المرء لم يكن إلّا وليد التّلقين، بل إنّ هذا مستحيل لأنّ صيغ اللُّغة كثيرة وأساليبها متعدّدة وطرق التعبير فيها لا تكاد تقع تحت حصر ومن المستحيل أن نتصور أنّ كُلّ متكلّم قد مرت به تجربة السّماع لكل صيغة ولكل أسلوب ولكل استعمال، ولكل عبارة، وإنّما سمع البعض فاختزنه في الحافظة مرتّبًا منظمًا مبوبًا في مجاميع منسجمة"[22]. وهكذا فإنّ العقل البشري يستطيع تخزين قدر كبير من المفردات والأساليب في لغة واحدة أو في عدة لغات، وله القدرة على اشتقاق مفردات دون الحاجة إلى تخزينها وهو قادر على استنباط أساليب وتراكيب جديدة لم يتعرّض لها من قبل.

وفي هذا الاتجاه قدّمت النّظريات اللسانية تصوّرات تحلّل الملكة اللّغوية البشرية، وآليات اكتسابها، وقدرة العقل البشري على فهم اللُّغة وإنتاجها، حيث أن تلك "الملكة اللُّغويّة التي يكتسبها الإنسان تمكّنه من الاتّصال مع غيره بالخطاب على الوضع (أي نظام الرموز أو اصطلاح التّخاطب) الذي بنيت عليه لغته، فكل إنسان مفطور على تلك الجبلة، وهي القدرة على اكتساب وضع ما من بين الأوضاع التّبليغية، فالمعلومات التي تتكوّن منها هذه الملكة هي معلومات غير شعورية، إلّا إذا انعكس شعور المتكلّم عليها بالتّأمل لكيفية أدائه لكلامه، وهذا يحدث كلّما تعثر لسانه، أو أخطأ في ذلك الأداء كما يحدث بحكم ميله الطبيعي إلى تأمل الأشياء والنّظر فيها"[23]. ومن مظاهر الإبداع في السلوك اللغوي العادي قدرة المتكلّمين على فهم وإنتاج عدد لا محدود من الجمل التي لم يسبق لهم أن سمعوها من قبل، والتي يوافقها تنوع لا محدود في التصورات التي يمكن استحضارها عند إنتاج الجمل أو فهمها، وأمّا بخصوص مجال التّصورات المُعجميّة، فمن الملاحظ أنّ الفرد قادر على أن يكتسب خلال حياته عددا غير محدود من التّصورات، بناء على معطيات جزئية، وبما أنّ التّصورات المُعجميّة يجب أن تُرمّز باعتبارها شبكات لا شعورية، وليس لوائح من الأمثلة، فإنّ اكتساب التّصورات المُعجميّة يُبنى انطلاقا من أساس فطري من التّصورات الممكنة، تتمّ قولبته بمساهمة التجربة اللُّغويّة وغير اللُّغويّة[24]. يقول: هرمان بول (Herman Paul)[25] "أنّ النّاس حين يتلقون الكلمات والصيغ لا يحللونها إلى

عناصرها، ولا يستخرجون منها الأصول والزوائد أو اللّواحق والسّوابق، بل يدركون تلك الصيغ إدراكا كلّيا، ويفهمون كلًا منها على أنّها كتلة واحدة لا انفصام بين أجزائها، كما يستعملونها في كلامهم على تلك الصور المركبّة التي سمعوها من غيرهم. ولا يكادون يشعرون بتلك الزوائد التي تفيد معنى خاصّا في الأسماء والأفعال. وهم في حياتهم العادية يسمعون اللُّغة كتلا مركّبة، ويتكلّمون بها كتلا مركّبة أيضا، ويحفظونها على تلك الصور المركبة، فتعيها الذّاكرة وتستقر فيها مخزونة أو محبوسة حتى تدعو الحاجة لانطلاقها من عقالها"[26].

ومن ثَمّ ووفق هذه التّصورات فإنّ إدراك اللّغة وتراكيبها وأساليبها يتمّ بصورة عفوية فطرية بعيدة عن مناهج التّعقيد واستنباط القواعد وتلقينها، حتّى أنّ توظيف الزوائد واللّواحق والسّوابق لا يتمّ وفق الآليات التي نقدّمها من تقطيع وتجريد للمفردات.

ولما نأتي إلى تعلّم اللُّغة وتعليمها، وعندما تكون غايتنا أن يتمكّن المتعلّم من استخدام اللُّغة في التّواصل والتّعبير بصورة سليمة، فإنّه علينا أن نستفيد من الآليات الفطرية في اكتساب اللّغة والتي بها يستطيع الطفل أن يكتسب لغته الأم في سن مبكرة جدا ودون أن يتعرض للقواعد النحوية والصرفية وغير ذلك، فهو إذن يكتسب لغته بتفاعله مع محيطه فقط وبمحاكاة غيره في طريقة النّطق والاستخدام السليم للمفردات، كما أنّه يكتسب أيضا طُرق إعمال القواعد بصورة عفوية ودون إدراكها.

وإن ارتكز تعليم اللّغة العربيّة ومناهجها التّعليمية على تلقين القواعد النّحوية والصّرفية والإملائية وأساليب التعبير والصور البلاغية وغير ذلك من علوم اللّغة؛ فإنّ هذا الكم من التلقين يُسبّب إرهاقا وتنفيرا للمتعلمين من تعلّم اللُّغة وفق تلك الأساليب التي غالبا ما تكون محاطة بأنواع الغموض والتعقيد؛ دون أن تحقق الغاية منها؛ وهي أن يستطيع المتعلم استخدام اللُّغة بشكل سليم في التعبير والتواصل.

لذا فإنّ أيسر طرق تعلّم اللّغة وتعليمها يجب أن تنطلق من محاكاة الأنماط الفطرية في اكتساب اللّغة وتعلّمها؛ ويتجسد ذلك في التركيز على (التكرار والمحاكاة) في تعليم اللُّغة. وعندما نأتي إلى اللُّغة العربيّة فإنّ تعليمها لا يجب أن يخرج عن هذه الأساليب الفطرية العفوية، وقد نجد بعضا من ذلك مجسدا في الكتاتيب وذلك عندما تقوم بتقديم مواد لغوية (متون) تتمثل في (القرآن الكريم والأحاديث ودواوين الشعر)؛ ووفق هذا المنهج يستوي لسان المتعلم بالتكرار والمحاكاة ويكتسب معجما ذهنيا ثريا يُتيح له القدرة على استدعاء ما يحتاجه من ألفاظ سليمة بما يناسب كلّ عملية تواصلية، وغالبا ما نجد أنّ طلاب المدارس النظامية يعانون من فقر في الألفاظ ويتخرجون بمعجم ذهني محدود لا يُتيح لهم القدرة على التّعبير وإيجاد الألفاظ التي تناسب مختلف العمليات التواصلية.

وإن قلنا أنّ اللُّغة البشرية منطوق يرتكز على مُعجَمٍ ذهنيٍ وتحكمه قواعد تصريحية من نحو وصرف وغير ذلك؛ وقواعد ضمنية تجتمع فيها مختلف العمليات الرياضية والمنطقية التي تحكم الكلام، فإنّ الاعتقاد بالوقوف عند الجوانب النحوية في تعليم اللُّغة يكون غير سليم، وإن كانت حقيقة المناهج المدرسية الحالية في تعليم اللّغة لا تقف عند حدود النحو والصرف بل تتعدى ذلك إلى كثير من الأساليب والتقنيات، غير أنّ قصورها يعدّ واضحا لعجزها عن تحقيق الأهداف المرجوة منها؛ فهي عاجزة عن تخريج طلاب بلسان عربي سليم، لأنّ عامة الطلاب يصلون إلى الجامعة برصيد لغوية ضئيل، ومعجم فقير جدا، مع فشل في الاستخدام الصحيح لقواعد اللُّغة من نحو وصرف وإملاء وغير ذلك.

هذا القصور في تعليم اللُّغة وتعلّمها يدعو إلى البحث في أماكن العجز ولعل من بينها أنّ الاتجاه إلى بناء المناهج التعليمية يكون باستدعاء نظريات لغوية ومقاربات تتجه إلى التّعقيد أحيانا وأحيانا أخرى تنحرف من تعليم اللغة إلى دراستها؛ ممّا يؤدي إلى إرهاق أذهان المتعلمين بكثير من القواعد اللّغوية في سن مبكرة، لوجود اعتقاد خاطئ بأنّ الذهن يأخذ القواعد النحوية ثمّ يقوم بتوظيفها والاحتكام إليها أثناء أي عملية تواصلية، والحقيقة أنّنا عندما نتواصل لا نستحضر القواعد اللّغوية ولا نفكر فيها ولا نستحضر عامل الرفع والنّصب وما يجوز حذفه وما لا يجوز ولا نستحضر مبررات الابتداء بالنّكرة وغير ذلك من قواعد النحو والصرف، بل نجنح إلى ما تعودت عليه ألسننا وإن كان فاسدا.

ومادام التّعليم الحديث مبني على تركيز قدرٍ محدّدٍ من المعارف اللّغوية في مدة زمنية محددة؛ فإنّ ذلك القدر من المعارف يجب أن يُبنى بكل عناية واهتمام، مع استحضار فكرة أنّ اللّغة ملفوظ تحكمه قواعد تصريحية وضمنية؛ وأنّ تحصيل ذلك الملفوظ يأتي من خلال التكرار والمحاكاة، كما أنّ هناك مُعجَم ذهني يجب إثراؤه بكثير من الألفاظ والتراكيب ويكون ذلك باستهداف نصوص متنوعة وشاملة عبر مختلف المستويات التعليمية ومتكاملة في مجموعها وهذا يعني أن تغطي تلك النّصوص جلّ الألفاظ والتراكيب السليمة والمتداولة؛ حيث يجب أن تُقدّم للمتعلّمين رصيدا لغويا يُثري معجمهم الذهني الذي سيُمكّنهم من إيجاد كُلّ ما يحتاجونه من الألفاظ والتراكيب التي توافق كُلّ العمليات التعبيرية والتواصلية الممكنة أو التي يُحتمل أن تواجههم.

خاتمة:

درجت معظم المناهج التعليمية على بسط القواعد النحوية والصرفية وعرض أساليب التّعبير والبلاغة وغير ذلك من العلوم اللُّغويّة مما يمكّن من تعليم اللُّغة واكتسابها؛ وإن كان قصور هذه المناهج واضحا وبارزا في عجز الطلاب على تحصيل اللُّغة والتحكم فيها؛ مع افتقادهم للقدرة على التعبير والتواصل بلغة سليمة، وهنا تأتي أهمية محاكاة الطرق الفطرية في اكتساب اللُّغة وتعلّمها؛ حيث ووفق هذا المنهج فإنّ تعلّم أي اللُّغة يجب أن يرتكز على المحاكاة والتكرار ويكون ذلك باقتراح نصوص لغوية متنوعة ومتكاملة وتقديمها بصورة منطوقة سليمة بما يناسب مختلف الوضعيات والمجالات والعلوم، وهكذا تنطلق المناهج التعليمية من محاكاة الطرق الفطرية والعفوية والتي تكون عادة بسيطة وبعيدة عن كُلّ تعقيد؛ حيث يمكن من خلالها تعليم اللُّغة بعيدا عن المبالغة في الاعتماد على القواعد وتلقينها، وقد وقفنا من خلال هذه الورقة البحثية على النتائج التالية:

1. من المهم عند بناء مناهج تعليمية اللّغات إعطاء الأولية للجانب المنطوق في اللُّغة، باعتبار أنّ اللغة ملفوظ تحكمه قواعد ويرتكز على مُعجَم ذهني مخزن في العقل البشري؛ وأنّ أي منهج يُراد منه تعليم اللُّغة يجب أن ينطلق من المحاكاة والتكرار بهدف تقييد الملفوظ بصورة سليمة ثمّ تحصيل القواعد اللُّغويّة بطريقة عفوية.
2. يجب التّمييز عند صياغة المناهج التّعليمية بين ما هو مساعد على تعلّم اللّغة كتعليم القواعد من نحو وصرف وغيرهما وبين ما هو أساسي في عملية اكتساب اللّغة من محاكاة للملفوظ اللّغوي السّليم ثمّ تكرار ذلك مع ضرورة إثراء الرصيد المعجمي للمتعلمين.

3. من الضروري الاهتمام عند صياغة النّصوص التّعليمية بالرصيد المعجمي وجعل النّصوص تكاملية بين مختلف المستويات التعليمية حيث تمكّن في مجموعها (عبر مراحل العملية التعليمية) من تقديم جلّ الرصيد اللّغوي السليم والمتداول للمتعلمين.
4. من الواضح أنّنا لا نستحضر قواعد النحو والصرف أثناء العمليات التواصلية إلّا نادرا بل نميل إلى ما تعودنا عليه، هذا التّصور يتطلّب منا مراجعة تقديم كلّ ذلك القدر من قواعد اللّغة للمتعلّمين عندما نستهدف تعليم اللّغة، وهنا علينا أن نتّجه إلى التّيسير عند التعامل مع النّحو العربي مع وجوب الابتعاد عن تعقيدات إعمال العوامل وغير ذلك.
5. أدت المناهج الحالية لتعليم اللّغة العربيّة إلى تنفير المتعلّمين من اللّغة لعجزهم عن إدراك قواعد النحو والصرف؛ وقد أدى ذلك إلى إعاقتهم عن الفهم والإبداع بلغتهم؛ كما أدى أيضا إلى إغفالهم لجماليات اللّغة العربيّة وأساليب التعبير فيها وطرق توظيفها، هذا الحال يدعو إلى التفكير الجاد في إعادة النظر في مناهج تعليم اللّغة العربيّة وإعادة بنائها بصورة تجعلها ميسرة وبعيدة عن كلّ تعقيد أو غموض.

قائمة المصادروالمراجع:

1. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1966م.
2. أحمد المتوكّل: اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، دار الأمان الرباط، ومنشورات الاختلاف الجزائر، والدار العربيّة للعلوم ناشرون بيروت، ط1، 2012م.
3. امحمد الملاخ وحافظ إسماعيلي علوي: المُعجَم الذهني والتقييس الحاسوبي، ضمن مؤلف: المعجميّة العربيّة قضايا وآفاق، إعداد: منتصر أمين عبد الرحيم وحافظ إسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ج2.
4. عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2012م.
5. عبد السلام المسدّي: مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.
6. عبد القادر الفاسي الفهري، إنشاء قاعدة معجمية عربية مولّدة، ضمن مؤلف: المعجميّة العربيّة قضايا وآفاق، إعداد: منتصر أمين عبد الرحيم وحافظ إسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ج2.
7. عز الدّين البُوشيخي: التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية، صائغ ومكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2012م.
8. عمر مهديوي: اللغويات الحاسوبية في المغرب، ضمن كتاب: اللسانيات الحاسوبية واللُّغة العربية إشكالات وحلول، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2018م.
9. محمد الأوراغي: الوسائط اللُّغويّة أُفول اللسانيات الكلية، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2001م.
10. محمد رباحي: إستراتيجيات اللسانيات الحاسوبية في صناعة المعاجم العربيّة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة الدكتورة ملاي الطاهر سعيدة 2021م.
11. محمد غاليم: نحو تصوّر جديد لتخصيص المعاني المعجمية، ضمن مؤلف: المعجميّة العربيّة قضايا وآفاق، إعداد: منتصر أمين عبد الرحيم وحافظ إسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ج27.
12. مصطفى عقلي: القدرة المعجميّة وآفاقها التعليمية مقاربة لسانية وظيفية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن ط1، 2018م.
13. موقع ويكيبديا: https://ar.wikipedia.org/

هوامش وإحالات المقال

1 محمد الأوراغي: الوسائط اللُّغويّة أُفول اللسانيات الكلية، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2001م، ص68.

2 عبد السلام المسدّي: مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، 191.

3 أحمد المتوكّل: اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، دار الأمان الرباط، ومنشورات الاختلاف الجزائر، والدار العربيّة للعلوم ناشرون بيروت، ط1، 2012م، ص25.

4 عبد السلام المسدّي: مباحث تأسيسية في اللسانيات، مرجع سابق، ص194-196.
5 مصطفى عقلي: القدرة المعجميّة وآفاقها التعليمية مقاربة لسانية وظيفية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن ط1، 2018م، ص203، 204.
6 المرجع نفسه، ص205، 206.
7 المرجع نفسه، ص54.
8 المرجع نفسه، ص130.
9 محمد الأوراغي: الوسائط اللُّغويّة أُفول اللسانيات الكلية، مرجع سابق، ص73.
10 مصطفى عقلي: القدرة المعجميّة وآفاقها التعليمية مقاربة لسانية وظيفية، مرجع سابق، ص130.
11 المرجع نفسه، ص130.
12 عز الدّين البُوشيخي: التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية، صائغ ومكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2012م، ص80.
13 مصطفى عقلي: القدرة المعجميّة وآفاقها التعليمية مقاربة لسانية وظيفية، مرجع سابق، ص131.
14 عز الدّين البُوشيخي: التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية، مرجع سابق، ص89.
15 المرجع نفسه، ص90.
16 أحمد المتوكّل: اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، مرجع سابق، ص26، 27.
17 محمد رباحي: إستراتيجيات اللسانيات الحاسوبية في صناعة المعاجم العربيّة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة الدكتورة ملاي الطاهر سعيدة 2021م، ص109.
18 امحمد الملاخ وحافظ إسماعيلي علوي: الـمُعجَم الذهني والتقييس الحاسوبي، ضمن مؤلف: المعجميّة العربيّة قضايا وآفاق، إعداد: منتصر أمين عبد الرحيم وحافظ إسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ج2، ص240، 242.
19 إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مرجع سابق، ص24.
20 عبد القادر الفاسي الفهري، إنشاء قاعدة معجمية عربية مولَّدة، ضمن مؤلف: المعجميّة العربيّة قضايا وآفاق، إعداد: منتصر أمين عبد الرحيم وحافظ إسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ج2، ص202-204.
21 مصطفى عقلي: القدرة المعجميّة وآفاقها التعليمية مقاربة لسانية وظيفية، مرجع سابق، ص11، 12، 208.
22 إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1966م، ص23، 24.
23 عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2012م، ص176.
24 محمد غاليم: نحو تصوّر جديد لتخصيص المعاني المعجمية، ضمن مؤلف: المعجميّة العربيّة قضايا وآفاق، إعداد: منتصر أمين عبد الرحيم وحافظ إسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ج2، ص256، 257.
25 هِيرمان تِيُودور پاول (1846-1921) لِسانِيّ، ومُعجميّ ألمانِيّ. من أهمّ مؤلَّفاتِه كِتاب بعُنوان (مبادِئ تاريخ اللُّغة)، ينظر: موقع ويكيبيديا: https://ar.wikipedia.org/
26 إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مرجع سابق، ص23.